مجلة الرائد

العدد : ٢١٧ الموافق في ذو القعدة ١٤٢٠ هجري ٣ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : وجهة نظر : الدخول إلى القرن ٢١.. ماذا يعني ؟	بقلم : عبد الحق ناجي

لا شيء أدعى إلى الاستغراب من أن تسمع حديثاً لا ينقطع عن الدخول إلى القرن الواحد والعشرين في عالم متخلف ، كعالمنا العربي والإسلامي . في صحافتنا العربية وفي إعلامنا العربي بكل وسائله - ولا سيما الموجَّه منه - كلام دائم عن ضرورة الاستعداد للقرن المقبل . وفي الأوساط الثقافية كما عند " رجل الشارع " تساؤل عن شروط هذا الدخول وكيف يتم ! أما رجال السياسة والاقتصاد عندنا ، فيبدو أن ولوج الألفية الثالثة صار أمراً محسوماً لديهم ، وما علينا إلا أن نُعِدَّ أنفسنا لهذا الدخول عن طريق الأخذ بجملة من التدابير والإجراءات الفنية ؛ ولا بد طبعاً من بعض الجرأة في قراراتنا السياسية والاقتصادية .

نعم ، إننا نتحدث عن الدخول إلى القرن المقبل وكأن الأمر مجرد رغبة ، أو كأنه رهين باستعداد نفسي لا أقل ولا أكثر ، فما على عالمنا العربي والإسلامي إلا أن ينتظر أن تدق ساعة الصفر ، فإذا الدخول قد تمَّ وإذا بنا نعيش زمناً جديد اً ، وإذا بنا نفتح حقبة من التاريخ لا صلة لها بأمسنا ، أمسنا المظلم والمتخلف ، حقبة نودع من خلالها أزمات المسلمين في كل مكان وعلى كل صعيد ، أليس هذا حلماً جميلاً حقاً ؟!

ألا يكون من الأجدر إذن - والصراحة كذلك - أن نتساءل عن معنى الدخول إلى القرن الواحد والعشرين ؟ ولنكون أكثر دقة نسأل : من الذي سيدخل القرن المقبل ؟ من المعني بهذا الدخول ؟ أهو العالم بقضّه وقضيضه ، متقدِّمه ومتأخره ، أم هو جزء منه فقط ؟

الحق أن البحث عن جواب لتساؤلنا عن المعنيّ بالدخول إلى القرن الواحد والعشرين ما كان يتطلب جهداً يذكر لو أن المقصود من الدخول - عند متداوليه - توديعُ حقبة زمنية واستقبال أخرى . فالزمن لا يفرق بين متقدم ومتأخر ، ولا يمهل هذا حتى يأخذ بأسباب الحضارة والتمدن ليكون في مستوى العصر الجديد والقرن الجديد . إن حركة الأجرام قانون لا يتخلف ، والشمس تشرق بنورها على البشرية جمعاء ، كما تغيب عن الناس جميعاً ، فلا يُظنُّ إذن أن المبشرين بالقرن المقبل يعنون ما أشرنا إليه وإنما المقصود بالدخول - ولا ريب - الانفتاح على عالم جديد ، جديد المفاهيم والرؤى ، وجديد الوسائل والإمكانات المادية . إنه دخول إذن إلى عالم لم نصنعه نحن ، وإنما صنعه أسياد القرن العشرين . إنه عالم من صنع الأقوياء ، وفي ملكهم هم ، وما دام الأمر كذلك فإن باب هذا العالم مسدود في وجه

الضعفاء ، ومحرم على هؤلاء الانتفاع بخيراته إلا بثمن باهظ .

ربما توهَّم ساستنا أن تبني ظاهر الديمقراطية الغربية كاف لأن يجعل عالمنا العربي والإسلامي في مصاف الدول الكبرى ، قد يظن واهم سياسي أن الانتخابات المزورة والبرلمانات الشكلية والتعددية الوهمية ، وفصل السلط وسن القوانين والدساتير ، تفي بالمقصود وتحقق الأهلية للمرور إلى الألفية الثالثة . وربما ظن اقتصاديو العالم العربي والإسلامي أن التوقيع على اتفاقية « الجات » والقبول بلعبة السوق الحرة ، وفتح المجال أمام الشركات العالمية الكبرى تغدو وتروح كيف ومتى تشاء ، والقبول بمخططات البنك العالمي وصندوق النقد الدولي وشروطهما ، ربما ظن اقتصاديونا أن الأخذ بإجراءات من هذا النوع سيمكن عالمنا من الفوز بجنة النعيم وبخيرات القرن المقبل ، ويجعله شريكاً فاعلاً ومؤثراً في ساحة الاقتصاد ، ربما توهمنا أن العولمة طريقنا إلى الرفاه والمنافسة ندّاً لندّ .

من الواضح الجلي أن المعنيَّ بالدخول إلى القرن الواحد والعشرين هو الغرب ، الطرف الغالب في معادلة القرن الحالي . أما دخول الطرف المغلوب فلن يكون إلا دخولاً من باب التبعية والذنبيَّة ، وإلا فإنه إن جاز لعالمنا العربي والإسلامي أن يتحدث عن دخول حر ومستقل فلن يكون إلا دخولاً إلى القرن الثامن عشر تحديداً ، وليس إلى القرن الواحد والعشرين . فالوضع في عالمنا مشابه تماماً للوضع في أوروبا قبيل سنة ١٧٨٩م ، سنة الثورة الفرنسية على الإقطاع والكنيسة والمطالبة بالحريات . فشعوبنا المسكينة في حاجة إلى أن تنعتق من الرق أولاً وتسترد كرامتها وإنسانيتها المغتصبة من لدن إقطاعيي عالمنا وباباوات كنائسنا . ومتى تحقق ذلك نكون قد قمنا بالخطوة الأولى في مسيرة بناء عالم حقيقي يُعوض عالماً خيالياً نعيش فيه ولم نُسهم في بنائه .

أليس من العجيب حقاً أن نطمح إلى دخول القرن الواحد والعشرين ونمني النفس بذلك ونحن نعيش واقعياً بداية القرن الثامن عشر ؟ أم تُرانا خُيِّل إلينا أن التكنولوجيا التي بين أيدينا صنيعُ إلهامنا وإبداعُ عبقريتنا ؟ هل نحن إلا مثل مستعمل السيارة لا يميز بينها وبين عربة خيول ، ولا يفقه أبسط مبدأ من مبادىء تشغيلها ؟!

أن نكون مُجانبين للصواب إذا اعتبرنا العالم الثالث ، ومنه عالمنا نحن العرب والمسلمين ، زائراً في القرن الحادي والعشرين ؟ الحق أنه لا يعدو كونه كذلك ، إنه مجرد زائر لمتحفٍ ضخم ، تبهره مقتنياته وتسحره أعاجيبه ، فلا يدري أمِن صُنع الإنس أم من صنع الجن ؟! ..

إنه متحف ليس كما تعود أن يراه هنا وهناك في عالمه الثالث ، ليس فيه إلا كل بال وعتيق . إن

متحف القرن الحادي والعشرين ليس فيه إلا الجديد ، لا مكان فيه للماضي ، الداخلُ إليه لا يبقى حبيس أسواره ، بل تنفتح عيناه على آفاق أرحب وأرحب ، فإذا هو يبصر طلائع ألفية رابعة وخامسة وسادسة ..

نعم ، إنه مجرد زائر ، أو لنقل إنه ضيف . وهل يملك الضيف حولاً أو قوة عند مضيفه ؟! هل يملك حق تغيير أمكنة الأثاث أو مجرد أن يقترح ذلك على صاحب البيت دون أن يُمهِّد لاقتراحه بمقدمات وتبريرات ؟! أيجرؤ هذا الضيف على استعمال حاجيات البيت دون إذْنٍ من صاحبه ؟! ثم قبل هذا وبعده ، هل يقوى ضيفنا العزيز على المكوث طويلاً عند مُضيفه دون أن يُصاب بالخجل والارتباك خشية أن يقال : « ضيف ثقيل » . إن الضيف الخفيف لا يطيل المقام عند مُضيفه . فعلينا أن لا نثقل - نحن العرب والمسلمين - على الأقوياء في قرنهم الواحد والعشرين .

ولا مناص هنا من الإشارة إلى أمر مثير للدهشة : ذلك أننا لم نسمع لا عن دخول ولا خروج حين ودعنا القرن الرابع عشر الهجري واستقبلنا القرن الخامس عشر الهجري (حسب وحدة القياس الإسلامية المفترضة) . لماذا لم يُصاحب التطبيل والتزمير هذا الدخول مثلما يصاحب دخول القرن الواحد والعشرين ؟ ما السر يا ترى ؟ لا لغز ولا سر ، كل ما في الأمر أن الدخول تمَّ ولكن في جنح الظلام وبسرية تامة وحرص شديد على التستر والكتمان . كل هذا لكي لا ينكشف أمره ، فتضحك البشرية ملء فيها من دخول البائسين سيئي الحظ .. كامرأة زُفَّت في عامها الخمسين ، فهي حريصة أن تمرَّ ليلة زفافها دون ضجة ، إنها أول من يخشى أن تنطلق الزغاريد في السماء . ليلةُ دخول العجوز هي ليلة دخولنا القرن الخامس عشر الهجري ، لم يكن في جعبتنا ساعتها - ولا نزال - ما نفخر به . لم نكن نملك حينها - ولا نزال - لا عَتاد ولا عدة نواجه بها تحديات القرن الخامس عشر الهجري . لم يكن أمسُنا أمسَ المنجزات حتى نرتقب غداً أفضل أو نتطلع بلهفة إلى ما سيصير إليه عالم المستقبل . هل أطلقنا صاروخاً واحداً في سماء الدنيا الواسعة في قرننا الرابع عشر الهجري حتى نسبح في عالم الخيال داخل مركبة فضائية تنتقل بنا من كوكب إلى كوكب ، ولمَ لا من مجرة إلى مجرة ؟! هل هبط إنسان عربي أو مسلم على سطح القمر في قرننا الرابع عشر الهجري حتى نُعلل النفس بآمال النزول على سطح المريخ خلال القرن الخامس عشر الهجري ؟! هل كانت لنا يد في عوالم الحاسوب والبرامج المعلوماتية ؟! هل .. شاركنا ولو بالنزر القليل في ثورة الاتصالات في أمسنا ، حتى نحلُمَ باليوم الذي يضغط فيه الإنسان على زر لينتقل من مكان إلى مكان في لمح البصر ، كما تمنيّ أفلام الخيال العلمي الغربية

الإنسان الغربي بذلك ؟! وهل .. وهل .. وهل ..

إن الطريق أمامنا طويل .. طويل ، وهو مع طوله شاق وعسير ، إننا مطالبون - وبأسرع ما يمكن - بنبذ حالة التكفف والتسول على عتبات الأقوياء . علينا أن نكف عن قرع الأبواب الموصدة في وجوهنا ، يجب أن نمسك أيدينا كي لا تمتد إلى أشياء الغير ومخترعاته ، كفانا ما مارسناه من التطفل على أحلام الآخرين وعوالمهم . ولنؤمن إيماناً جازماً أن عالم القرن الحادي والعشرين بُني لبنة .. لبنة ، ولم يتنزل من السماء دفعة واحدة . فحين نقرنُ اسم « جيمس وات » بالمحرك البخاري الذي قامت عليه الثورة الصناعية في القرن التاسع عشر ، لا ينبغي لحظة أن نتجاهل أسماء أخرى كـ « دنيه بابن »و« جاك بيريه » و « ريتشارد تريفيثيك » وآخرين .

فلولا هؤلاء وغيرهم ممن لم نذكر ما تسنَّى لجيمس وات أن يقطف الثمرة حين تنبه إلى الخاصية التمددية للبخار ، فزاد بذلك من كفاءة المحرك (انظر موسوعة المعرفة ، المجلد الثامن ، ص ١٤٢٠، ترادكسيم ١٩٧١م) . وما قيل هنا عن المحرك البخاري يقال عن الكهرباء والتلغراف والتصوير الفوتوغرافي والصعود إلى السماء بواسطة البالون وهلم جراً .. مجالات برع فيها العقل الغربي . ويُخطيء كل الخطأ من يظن أن صنائع هذا العقل من بنات أفكار شخص بعينه أو وليدة يوم وليلة . فليت شعري من قال لنا إن التكنولوجيا تُستورد ؟!

إن جيمس وات والممهدين له يمثلون " سلسلة العلم " في مجال مخصوص ، هو المحرك البخاري ، ولا ريب أن المتتبع لمسيرة العلم في أوروبا ، مُذ قطعت وشائج القربى مع الخرافة التي لازمتها قروناً خلت ، ونقضت عُرى التفكير الكنيسي عروة عروة ، لا ريب واجد سلاسل شتى في ميادين العلم الفسيحة . سلاسل صحيحة السند والمتن . لا تقبل طعناً أو تضعيفاً . وكيف يُطعن في صحتها والنتائج ماثلة للعيان ؟ كيف والكشوف تتوالى تطوي الزمان طياً ، وتجتاز آثارها حدود المكان الأم ليغدُوَ العالم قرية صغيرة ؟

سلاسل العلم هذه هي بالذات ما يجعلنا نجزم أن الغرب حين يتكلم عن عالم الألفية الثالثة فإنما يتكلم عن بيئته . وحينما يبشر باقتصاد السوق يكون مدركاً تمام الإدراك لما يُبشر به ، معلناً براءته من الحمقى والمغفلين ، وحين يدعو إلى العولمة - أو على الأصح حين يفرض العولمة - فهو أبعد ما يكون عن ترديد الببغاوات . ولا يعني ما نحن بصدد تأكيده هنا تعبيراً عن اقتناع بأن نظرة الغرب إلى الوجود نظرة سليمة حكيمة . فمع إقرارنا بقصور هذه النظرة التي لا تدين إلا بالعلم ، بمعناه الإقصائي (أي

إقصاؤه للوحي ولطاقات الإنسان الأخرى) ، فإننا نعتقد أن الغرب قد حقق نجاحاً باهراً في عالم المادة . ومن هذا المنطلق نحسب أن حديثه عن عالم الغد له ما يبرره ، كما أن استشرافه لعالم المستقبل أمر طبيعي ومفهوم غاية الفهم ، ما دام أن تطلعه هذا وحديثه ذاك يدخلان في دائرة ما يتقنه ، وينتميان إلى حقل كرس له كل جهوده وطاقاته ، بل ضحى من أجله بكل ما يستعصي على التجربة ويأبى أن يلج المختبر ، ذاك هو العلم المادي . من هنا نلمس الفرق بين حديث الغرب عن الدخول إلى القرن الحادي والعشرين وحديث عالمنا العربي والإسلامي عنه . إنه كالفرق بين الأصيل والدخيل ، أو بين الابن الشرعي والمتبنى ، فعالمُ المستقبل القريب ابن شرعي للغرب ، تبناه العالم المتخلف ، والكلام عن الفرق بين حديث وحديث يقود إلى الكلام عن الفرق بين دخول ودخول . والأمر هنا في غاية البساطة ؛ فإذا كان حديث الغرب عن القرن المقبل حديث العارف الحاذق ، حديث من يُلم بموضوعه إلماماً ، فعَينُ العقل أن نخلص إلى أن دخول الغرب إلى القرن المقبل دخول واع ويقظ . فليس بين القرنين العشرين والواحد والعشرين طفرة ، بل صيرورة واتصال . أما دخولنا نحن فدخولُ الغافل الساهي ، غير أننا نخفي غفلتنا وسهونا باصطناع المعرفة واليقظة ، دخولنا قفزٌ وانقطاع ، شأن من ليس بينه وبين جاره إلا الابتسامة والتحية . تلك هي علاقتنا بالقرن المقبل ! ولذلك فلا غرابة أن وجدنا مجتمعاتنا تتلهف على اقتناء ما تجود به عبقرية الغرب من حواسيب وصحون فضائية وهواتف متنقلة وآلات إلكترونية ضرورية أو غير ضرورية ، ظناً منها أن ملأ البيت بهذه المقتنيات علامة التقدم والمعاصرة ، ورجاء أن تكون في مستوى الألفية الثالثة ، ذلك مبلغنا من العلم !

ليس في نيتنا أن نقتل الطموح والآمال - من خلال هذا المقال - لدى الإنسان العربي والمسلم ، ولكننا نأبى أن نستسلم للخواطر وتداعيات الأفكار . ونرفض كل الرفض أن ننخدع ولو للحظة بأن عالم القرن الواحد والعشرين هو عالم البشرية قاطبة ، قويها وضعيفها ، كادحها ومتسولها ، متقدمها ومتأخرها . نرفض الادعاء بأننا أسهمنا في بناء الحقبة المقبلة ، قد يقول قائل : إن الغرب استفاد من الأدمغة العربية ، وأبناؤنا هناك فوق العدّ والحصر ، ولا تكاد تُنقِّبُ في أدق التخصصات العلمية والتقنية حتى يصادفك دم عربي أو مسلم . وصحيح ما قيل ، غير أنه لا هؤلاء الذين قدموا للغرب عقولهم ولا أولئك الذين منحوه سواعدهم يقود سفينة البشرية . ومن ثمَّ فهؤلاء وأولئك أشرعة لا غنى لحركة السفينة عنها ، ولكن الأشرعة تعجز أن توجه السفينة إلى طريق غير الذي يرضاه ربانها . عقولنا وسواعدنا كالدابة التي تدور حول محورها لتستخرج الماء لينتفع به مالكها . إنها تدور لا تعرف غاية من دورانها ، ولا إلام سيستمر هذا الدوران .. فهل من يقظة بعد غفلة ؟!